آليات الحجاج اللغوي في الحديث النبوي
"حديث أم زرع نموذجا"

مرسلي مسعودة
المركز الجامعي تيسمسيلت

تطورت الدراسة اللغوية في السنوات الأخيرة وأصبح الخطاب هو الركيزة الأساسية لجلّ البحوث اللغوية والأدبية في بعديه الكتابي والشفهي، كما حظي التواصل باهتمام منقطع النظير مما أدى إلى دراسة الخطاب ضمن البعد التفاعلي والتشاركي، فلم يعد المتلقي سلبيا يسمع كلام المرسل بطريقة آلية بل هو متلق له دور فعال يسمع ويردّ وله حق الاعتراض، كما لم يعد المرسل باثا ومبلغا فحسب بل هو مدع يعرض أفكاره ويحتج لها ويسعى للتأثير على المتلقي ودفعه لا إلى الرد فحسب بل إلى العمل، وفي هذا الإطار يسعى الكثير من اللسانيين إلى تأسيس نظرية تواصلية تقوم على التفاعل والحجاج، فما الحجاج؟ وما آلياته اللغوية؟ وكيف تجسدت من خلال حديث أم زرع؟

كثيرة هي التعريفات التي قدمت لمصطلح الحجاج، على اعتبار أنه مصطلح ضارب بجذوره في أعماق التاريخ، حيث نجده يمتد إلى مناظرات الفلاسفة اليونان من أمثال سقراط وأفلاطون، دون إغفال دور السوفسطائيين حيث كانوا عاملا أجج فنون المناظرة وأسهموا بشكل فعال في التنظير للحجاج[1]، وقد تناول أرسطو الحجاج على مستويين، الأول: البلاغة التي تتمثل عنده في «القدرة على كشف نظري لما يمكن أن يكون في كل حالة خالصا للإقناع»[2]، أما الثاني: فهو الجدل: الذي «يعتبره عملية تفكير تتم في بنية حوارية وتنطلق من مقدمات لتصل إلى نتائج ترتبط بها بالضرورة»[3]

وإذا مررنا بالحضارة العربية الإسلامية نجد أنّ بيئتها كانت تداني أو تفوق البيئة اليونانية من حيث الغنى والثراء الفكري الذي يعتبر أصلح مناخ ينمو فيه الحجاج ويترعرع، بل ويصبح شجرة باسقة وارفة الظلال، فقد كثرت المذاهب والفرق وازدهرت النقاشات والمناظرات، وحتى نتعرف على تاريخ المصطلح في الحضارة العربية الإسلامية علينا أن ننطلق من استخدام اللفظ في القرآن الكريم لأنّه يعتبر نقطة الانطلاق الحقيقية لجلّ المفاهيم التي نشأت تحته في ظل الحضارة نفسها.

فمن ورودها فيه باللفظ قوله تعالى﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ﴾[4]، وقد فسرها صاحب التحرير والتنوير بقوله: «ومعنى حاجّ خاصم، وهو فعل جاء على زنة

المفاعلة [...] ومن العجيب أن الحجة في كلام العرب البرهان المصدق للدعوى مع أنّ حاجّ لا يستعمل غالبا إلاّ في معنى المخاصمة [...] وأنّ الأغلب أنّه يفيد الخصام بباطل»[5]، أي اعتماد المخاطب على الأدلة لدعم رأيه ودحض رأي الخصم ولكن مع شيء من التخصيص في اللفظ، وذلك أنّ الخصومة من طرف المدعي قائمة على الباطل.

ومن ورودها بالمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾[6]، وفي التحرير «المجادلة مفاعلة من الجدل وهو القدرة على الخصام والحجة فيه، وهي منازعة بالقول لإقناع الغير برأيك ومنه سمي علم قواعد المناظرة والاحتجاج في الفقه بالجدل»[7]، فالجدل كما تبين من القول نزاع قولي يعتمد الحجة، وقد سعى عبد الله صولة إلى التمييز بينهما من خلال القولين –وكليهما للطاهر بن عاشور– «إنّ الجامع بين معنيي اللفظين هو المخاصمة لكنها في الحجاج قائمة على الباطل [...] في حين أنّ الجدل منه ما هو حق ومنه ما هو باطل»[8]

والألفاظ الدالة عليه في القرآن الكريم كثيرة منها: الجدال والخصام والمنازعة والمراء والبرهان، وكلّها ترد إلى نوع من الخلاف الفكريّ ينتج عنه منازعة قولية يعمد فيها كل طرف إلى دعم موقفه بحجج لدحض رأي الطرف الآخر.

وإذا عرجنا على النصوص البلاغية ساعين إلى استقصاء بعض الدلالات الموحية بمفهوم الحجاج –لا المنظرة له– فلا نكاد نجد تعريفا للبلاغة إلا وفيه إشارة إلى الإقناع والإتيان بالحجة للتأثير في المخاطب، ومن تلك النصوص ما أورده كلّ من الجاحظ في البيان والتبيين وأبي هلال العسكري في الصناعتين، فمن التعاريف التي أوردها الجاحظ للبلاغة – ولها صلة بموضوع الحجاج – قول العتابي مجيبا من سأله عن البلاغة: «كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ، فإن أردت اللسان الذي يروق كل الألسنة ويفوق كل خطيب فإظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل في صورة الحق»[9]، في هذا التعريف إشارة صريحة إلى عملية الحجاج، وقد صنفه حمادي صمود ضمن القسم الذي يركز على «مقاصد البلاغة العقائدية ويوظفها لغايات جدلية إقناعية فتسخر للشيء ونقيضه تبعا لحاجات المتكلم من خطابه»[10]، وأشار إلى أنّ هذا الصنف من الإشعارات البلاغية كان من جراء التأثر بالفلسفة اليونانية.

كما أورد قول عمرو بن عبيد «إنّك إن أوتيت تقرير حجة الله في عقول المكلفين، وتخفيف المؤونة على المستمعين، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين، بالألفاظ المستحسنة في الآذان، المقبولة عند الأذهان، رغبة في سرعة استجابتهم، ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة، على الكتاب والسنة، كنت قد أوتيت فصل الخطاب»[11]، فبعد عدة أسئلة وجهت لعمرو بن عبيد بين أن فصل الخطاب –منتهى البلاغة– متأت من تقرير

الحجة في العقول بالألفاظ الحسنة، التي تهدف أولا إلى تحقيق سرعة استجابة المتلقين، وهذا وجه من أوجه الحجاج، والقول هنا أيضا ذو صلة بعلم الكلام.

أمّا أبو هلال العسكري فنجده قد أشار إلى الحجاج من خلال شرح أحد تعاريف البلاغة فأسهب من خلال الشرح في استخدام آليات الحجاج، بذكر الشواهد التي منها: «كان أبو الأسود شيعة لعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه – وكان جيرانه عثمانية فرموه يوما، فقال: أترمونني؟ قالوا: بل الله يرميك، قال: كذبتم، إنكم تخطئون وإنّ الله لو رماني لما أخطأ»[12]، فهو قد أتى بهذا النص ليستدل على طريقة الإتيان بالحجة:

م1: الله لا يخطئ الرمي.

م2: الذي رماه أخطأه الرمي.

ن: العثامنة هم الذين يرمون.

ومن شواهد الحجاج التي ذكرها من القرآن الكريم قوله: «ومن وضوح الدلالة وقرع الحجة قول الله سبحانه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[13]»[14]، فاستغراب منكري البعث أمر إحياء العظام وقد أصبحت رميما مردود عليهم بالقياس العقلي، لأنّ الذي أنشأ هو القادر على أن يعيد، وتلك حجة دامغة:

الله أنشأ العظام (خلق الإنسان) إذن ← الله هو القادر على أن يعيدها.

لأنّ المنشئ من العدم قادر على الإعادة من الرميم.

وقد أسهب الكثير من العلماء في الحديث عن الحجاج والجدل ووضعوا لهما شروطا، وبيّنوا لهما حدودا وآدابا، وهي ذات صلة بأصول الفقه وعلم الكلام والفلسفة أكثر من أنّها ذات صلة بالبلاغة*.

ومثل هذا الموضع لا يسع تلك النصوص الكثيرة التي تشير إلى إرهاصات الحجاج في الثقافة العربية الإسلامية، ولذلك ننتقل إلى مفهوم الحجاج عند الغرب، الذين نظروا لهذا المصطلح، منطلقين من التراث اليوناني، وعلى رأسهم كل من شارل بيرلمان وتيتيكاه في كتابهما "مصنف في الحجاج، البلاغة الجديدة".

يعرف بيرلمان وتيتيكاه الحجاج بأنّه «درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات وأن تزيد من درجة ذلك التسليم»[15]، فهو دراسة للآليات التي تجعل من خطاب ما أكثر إقناعا من الناحية العقلية، وتؤدي بالمخاطب إلى الإذعان والتسليم للفكرة التي طرحت عليه.

وأسس أوزفالد ديكرو وأنسكومبر نظرية الحجاج اللغوية، وهي متميزة عن غيرها «حيث تتعارض هذه النظرية مع النظريات والتصورات الحجاجية الكلاسيكية التي تعد

الحجاج منتميا إلى البلاغة الكلاسيكية (أرسطو) أو البلاغة الحديثة (برلمان، أولبريخت تيتيكا، ميشال ميير) أو منتميا إلى المنطق الطبيعي (جان بليز غريس)»[16]

فنظريتهما في الحجاج تعتمد على الآليات اللغوية ودورها الفعال في عملية إقناع المخاطب، وأصبح الحجاج عندهما هو لب العملية اللغوية، فـ« لم يعد نشاطا لسانيا من بين أنشطة أخرى، ولكنه أساس المعنى نفسه، وأساس تأويله في الخطاب»[17]، والحجاج عندئذ ليس بالضغط ولا بالإكراه وإنما سلوك ناتج عن رضا المخاطب واقتناعه بما يعرضه عليه المرسل من حجج.

وكما بيّن أبو بكر العزاوي فإنّ هذه النظرية اللسانية «تهتم بالوسائل اللغوية وبإمكانات اللغات الطبيعية التي يتوفر عليها المتكلم، وذلك بقصد توجيه خطابه وجهة ما تمكنه من تحقيق بعض الأهداف الحجاجية ثمّ إنها تنطلق من الفكرة الشائعة التي مؤداها "أننا نتكلم بقصد التأثير"»[18]

وأبو بكر العزاوي من الذين تبنوا نظرية ديكرو، وعمل على نقلها للغة العربية وتطبيقها على العديد من نصوصها منطلقا «من مسلمة مفادها أنّ كلّ النصوص والخطابات التي تنجز بواسطة اللغة الطبيعية حجاجية»[19]

بل وقد عرف الخطاب بناء على الحجاج حيث يمكن اعتباره «بمجموعة من الأقوال والجمل ومجموعة من العلائق الدلالية المنطقية القائمة بينها، أو بتعبير حجاجي هو مجموعة من الحجج والنتائج التي تقوم بينها أنماط مختلفة من العلائق، فالحجة تستدعي الحجة المؤيدة أو المضادة لها، والدليل يفضي إلى نتيجة والنتيجة تفضي إلى دليل آخر، وكلّ قول يرتبط بالقول الذي يسبقه ويوجه القول الذي يتلوه»[20]

ومن أجل دراسة بنية الحجاج في الخطاب يجب الاعتماد على مجموعة من التقنيات، وهي وفق رؤية الشهري ثلاثة أقسام: «الأدوات اللغوية الصرفة مثل: ألفاظ التعليل بما فيها الوصل السببي والتركيب الشرطي وكذلك الأفعال اللغوية [...] والآليات البلاغية [...] والآليات شبه المنطقية»[21]

اعتمادا على رؤية العزاوي والمتمثلة في إقراره «أن كل النصوص والخطابات التي تنجز بواسطة اللغة الطبيعية حجاجية، لكن مظاهر الحجاج وطبيعته ودرجته تختلف من نص لنص ومن خطاب لخطاب»[22]، سأعمل على تحليل حديث من الأحاديث النبوية بمنظور حجاجي على اعتبار أنّه خطاب لغوي يخضع لما تخضع له بقية الخطابات اللغوية ويجري على قواعدها، وهذا الحديث هو المعروف بـ"حديث أم زرع".

مما يتميز به هذا الحديث هو أنّه قول عائشة —على أغلب الرويات- إلاّ ردّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في خاتمته، وهو عبارة عن حوار ترويه على ألسنة جمع من النسوة اجتمعن وتعاهدن أن يذكرن أخبار أزواجهن دون أن يكتمن بعضهن شيئا.

ما من امرأة إلا وترغب أن تعرف مكانتها في قلب زوجها خاصة أمام ضرائرها لإغاظتهن، وسعيا من عائشة — رضي الله عنها- إلى الوصول إلى هذا الهدف روت لرسول الله صلى الله عليه وسلم قصة هؤلاء النسوة استدراجا للنتيجة التي توصلت إليها من تصريحه عليه الصلاة والسلام لها بما أرادت، وذلك أنّ القصة من أبلغ وسائل التأثير والإقناع نظرا لأسلوبها الخاص الذي «يستمد تأثيره المميز من روافد عدة تتجمع في هذا الأسلوب فتمنحه قدرة على التأثير القادر على استهواء القلوب والإمساك بمقاليد النفس البشرية يقودها فتنقاد ويوحي إليها فتستجيب ويلقنها فتقبل في رضا وابتهاج»[23]

خاصة وأنّ هذه القصة لم تعتمد على السرد وإنّما اعتمدت على الحوار، و«ما من شك أنّ صلة الحجاج بالحوار أو الحوارية وثيقة، إذ من أوكد خصائص الحجاج أنّه حوار»[24]

ذكر شراح الحديث أنّ أحداث هذه القصة المروية على لسان عائشة قد وقعت بين نسوة من أهل اليمن، وذكر بعضهم لهن أسماء واختلفوا في ذلك*، وقد افتتحت عائشة الكلام باجتماع النسوة — وعددهن إحدى عشرة امرأة - وعقدن بينهن التزاما وهو ذكر أخبار أزواجهن وألاّ يكتمن منها شيئا وذلك حتى يتحقق التواصل الشفوي، وسنرى مدى التزام كل واحدة منهن بهذا العقد.

نميّز من نص الحديث بين نوعين من الأزواج: أزواج ذوو صفات حسنة، وأزواج ذوو صفات سيئة، وقد سعت النسوة إلى جمع الحجج لإثبات ما وصفن به أزواجهن.

فكانت الأوصاف القبيحة هي أوصاف استقبحتها العرب في الرجال، فالمرأة الأولى والثانية والثالثة والسادسة والسابعة كلهن ذكرن سوء أخلاق أزواجهن، أمّا الخامسة فكلامها يحمل على الذم كما يحمل على المدح والثاني فيه أولى.

أشارت الأولى إلى قلة الخير والنفع في زوجها مع تكبره، مما يدفع إلى زهد الناس فيه، فكان تقسيمها لصفاته من آليات الحجاج، فهو كلحم الجمل الغث لذلك يزهد الناس في صحبته، زيادة على ذلك كأنّه قد ارتقى جبلا وعرا فلا مقدرة للناس على الاصطبار على وعورته، وهي بكلامها قد استجمعت سوء خلقه وزهد الناس في صحبته، وأي حجة أقوى من هاته لتفصح عن سوئه.

والثانية بدأت حديثها بتصريح خالف عقد الخطاب المتفق عليه في بداية الحديث بعدم كتمان أخبار الأزواج وإذ بها تصرح "زوجي لا أبث خبره" لتتبع كلامها بقولها:

"إني أخاف ألاّ أذره" مستخدمة الرابط "إنّ" الذي ذكر الجرجاني أنها «تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمرا عجيبا»[25]، فهي لا تريد ذكر خبره لأنها تخشى ألا تبقي سيئة إلاّ وذكرتها.

وفي أسلوب الشرط المستخدم "إن أذكره أذكر عجره وبجره" وفاء بالعقد فهو تصريح ضمني حيث أنّها لم تعمد إلى سرد عيوبه ولكنها أشارت إلى أنّ فيه من العيوب الظاهرة والباطنة ما قد يضيق المقام عن إفشائه، وبالتالي كان تلميحها أشد من التصريح، وكنايتها أظهر من الإفصاح.

أما الثالثة فقد بنت قولها على تركيب شرطي، وهو «أسلوب لغوي ينبني -بالتحليل- على جزءين، الأول مترل مترلة السبب، والثاني مترل مترلة المسبب، يتحقق الثاني إذا تحقق الأول وينعدم الثاني إذا انعدم الأول»[26].

لكن المرأة بعقدها أسلوبي شرط "إن أنطق أطلق، وإن أسكت أعلق" بينت سوء حالها في الوضعين وسوء النتائج المترتبة عن ذلك:

سوء حالها ـــــــ النطق ـــــــــ تطلق

ـــــــ السكوت ـــــــ تعلق

وذلك مترتب عن سبب أظهرته من خلال الكناية في بداية قولها "زوجي العشنق" لتستدل على غبائه، فكانت الكناية بذلك آلية حجاجية بلاغية، فسوء خلقه في حالي النطق والسكوت ليس إلاّ لشدة غبائه.

واستخدمت السادسة —هي الأخرى- أسلوب الشرط كآلية حجاجية لتبين سوء خلق زوجها، وسوء تصرفه، وقلة لباقته، فوصفته بالنهم والشراهة، وعدم مبالاته بها ولا بأحوالها، وفي قولها: "ولا يولج الكف" كناية عن عدم تفقد أمورها "ليعلم البث" ولام التعليل من «الأدوات اللغوية التي يستخدمها المرسل لتركيب خطابه الحجاجي، وبناء حججه فيه»[27]، فهو معرض عن سؤالها، غير مبال بما يثير حزنها وبثها.

والسابعة وصفته بثقل الفكر والروح، وكلاهما مذمة، اجتمعت عنده كل العيوب، "كلّ داء له داء" و"كلّ" لفظ دال على الشمول، لتفرّع بعدها بعض عيوبه: "شجّك أو فلّك أو جمع كلا لك" فهذه حجج للاستدلال على سوء خلقه، وفي استخدامها ضمير المخاطب -الكاف- مع أن الزوج زوجها رغبة منها في زيادة التأثير في المتلقي، ليستشعر مدى الألم الذي تعانيه.

كما كان الإيجاز جليا في خطابها والذي يعد من أهم آليات الحجاج، فهو كما ذكر أوليفي روبول «هام من زاوية تعنى بالحجاج لأنه يشكل سلاحا نواجه به العدوين

القاتلين: النسيان وعدم الانتباه»[28] ، فالإيجاز ظاهر في قولها: "شجك.." حيث يمكن أن تقول إن كان هذا زوجك إمّا شجك وإمّا فلك وإما جمع كلا لك".

كانت هذه أقوال النسوة اللواتي ذممن أزواجهن، وحتى ننتقل إلى اللواتي ذكرن محاسنهم، نعود إلى خطاب الخامسة، حيث يحمل خطابها معنى الذم إلا أنه يدل أيضا على المدح، وإذا حمل على الثاني فإنّها وصفت حاله داخل البيت "إذا دخل فهد" وحاله خارجه "إذا خرج أسد"، فهو في البيت لين الجانب «لأنّ الفهد لين الملمس كثير السكون»[29]، ووصفته بالشجاعة والإقدام خارج البيت، وكنّت عن كرمه بعد السؤال عما عهد وكلها حجج لإقناع المخاطب بكرمه وشجاعته وحسن عشرته.

شبهت الرابعة زوجها بليل تهامة فمع ما توحي به كلمة ليل من رهبة وخوف إلاّ أنّ تخصيصها في التشبيه بليل تهامة نزع كل احتمال سيء عن ذهن المتلقي، فهو ليل معتدل آمن، فتشبيهها كان بمثابة الحجة لما تشعر به معه من أمن وسلام نفسي، وقد أتت له بحجج كالآتي:

ن: زوجي كليل تهامة ح1:لا حرّ ح2: لا قرّ

ح3: لا مخافة ح4: لا سآمة

أمّا الثامنة والتاسعة فقد استخدمتا الآلية الحجاجية نفسها، وهي الكناية التي تعد «وسيلة قوية من وسائل التأثير والإقناع»[30]، فبهذه الآلية استطاعتا الوصول إلى هدفهما المقصود من الوصف وإفهام المتلقي خاصة وأنّ تلك الكنايات مما اتفقت العرب على استعماله.

فالثامنة أرادت أن تصف زوجها بحسن الخلق، ولين العشرة مع قوته وشجاعته "وأنا أغلبه والناس يغلب"

.....كرم الأخلاق+الشجاعة..... المس مس أرنب

..... الريح ريح زرنب

..... أنا أغلبه والناس يغلب

بينما وصفته التاسعة بشرف المكانة ورفعتها وشجاعته وقوته زيادة على كرمه وسيادته.

.....السيادة+الكرم.....1- رفيع العماد 2- طويل النجاد

.....3- عظيم الرماد 4- قريب البيت من الناد

أمّا العاشرة فقد بدأت كلامها بذكر اسم زوجها "مالك" وفي استخدامها اسم العلم دليل على مكانته في قلبها وعظيم تقديرها له.

ثمّ تتوجه بالخطاب إلى محاوراتها من النسوة بسؤال "وما مالك؟" و«يعد الاستفهام من أنجع الأفعال اللغوية حجاجا»[31]، وهو هنا فعل لغوي غير مباشر إذ لا تبحث المرأة عن جواب وإنما لزيادة إقناع المخاطبات بعظم المتحدث عنه، لتجيب محطمة كلّ توقع تبادر إلى أذهانهن أنّ "مالك خير من ذلك" لتبين سبب تلك المكانة العظيمة التي تميز بها "له إبل كثيرات المبارك، قليلات المسارح" إبل أعدت للذبح والقرى، حتى أصبحت تستعد له بمجرد سماعها صوت المزهر، وهي كذلك كناية أسهمت في الاحتجاج لكرم هذا الزوج.

وإذا وصلنا إلى كلام آخر امرأة "أم زرع" وهي نقطة ارتكاز الخطاب، ومحوره الأساسي الذي جيء به من أجله، فقصتها بؤرة الحجاج في النص، إذ إنّ عائشة —رضي الله عنها- ما ساقت هذا الحديث إلا لاستغرابها من حال العشرة الطيبة بينها وبين زوجها "أبي زرع" ومع ذلك طلقها وتزوج غيرها، وعلى هذا الأساس كان ردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم.

بدأت المرأة خطابها بذكر كنية زوجها "أبو زرع" والعرب تستخدم الكنية لأغراض منها «التفخيم والتعظيم»[32]، وزادت تعظيما له وتفخيما بالاستفهام في وقولها: "وما أبو زرع؟" لتستطرد في ذكر الحجج التي بها عظم في نفسها.

وبما أنّ خطاب أم زرع هو مرتكز الحديث نجد فيه تعدد الآليات اللغوية الحجاجية فنجدها على خلاف صويحباتها تستخدم الإطناب وقد أوجزن، وللإطناب دور مهم في توضيح المعنى وتأكيده في ذهن المتلقي كما ساهم هنا في «تفخيم الأمر وتعظيمه»[33]، لتصل بالمتلقي (النسوة) إلى أنّ زوجها استجمع صفات المدح فهي لم تكتف بذكر صفاته بل وصفت أمه وابنه وابنته حتى جاريته.

وبعد كل هذا الوصف والتعظيم والتفخيم يتفاجأ المتلقي من طلاق أبي زرع لأم زرع رغم ما يكناه لبعضهما من ودّ.

ثمّ تستأنف سرد قصة زواجه من أخرى ومع ذلك تبحث له عن أسباب لتبرير زواجه من أنّ هذه المرأة معها "ولدان كالفهدين" وليس هذا التشبيه إلاّ من باب الاحتجاج مع ما للعرب من رغبة في الزواج من المرأة الولود.

وبعد طلاقها منه تزوجت سيدا فارسا شجاعا كريما أكرمها وأكرم أهلها وفي استخدام فعلي الأمر: "**كلي** أمّ زرع **وميري** أهلك" إظهار لكرم الرجل ومروءته فهو بحكم أنّه صاحب السلطة المطلقة داخل مؤسسة الزواج أكرم زوجته وأباح لها إكرام أهلها من ماله، وقد وظفت هذا الفعل الكلامي غير المباشر حجة للاستدلال على ذلك.

ومع هذا الإكرام الذي أكرمه لها زوجها الثاني فهي لا تعتبر ذلك شيئا قياسا على ما عاشته مع أبي زرع بل إنّ كلّ ما أوردته عن كرم زوجها الثاني لا يعدّ إلا حججا ساقتها لإثبات فضل أبي زرع.

كما تميز خطابها بكثرة السجع، وقد أشاد البلاغيون القدامى بالسجع ما لم يكن متكلفا فهو أكثر تأثيرا في النفوس، ولذلك حين سئل أحدهم عن سبب إيثاره الكلام المسجوع أجاب أنّه يريد بكلامه «الحاضر والغائب والراهن والغابر فالحفظ إليه أسرع، والآذان لسماعه أنشط وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت»[34]

وفي نهاية الحديث تصل عائشة – رضي الله عنها – إلى النتيجة التي كانت تهدف إليها وهي تصريح رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لها بحبّه لها مستخدما آلية التشبيه للإقناع «كنت لك كأبي زرع لأم زرع» وذلك أنّ حديث النسوة صوّر أنّ أبا زرع أحب أمّ زرع وأكرمها وبجّحها إلى حدّ لم تستطع معه نسيان ذلك الحبّ وذلك الإكرام رغم تطليقه لها وزواجها من آخر، مع أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حاز صفات الكمال البشري فهو خير من أبي زرع ولكنه أورد كلامه نتيجة للكلام الذي سبق من عائشة وتطييبا لخاطرها لكرمه وسمو أخلاقه.

وزاد في رواية النسائي "ولكني لا أطلقك" و"لكن" من أدوات الربط الحجاجي، ويبين أبو بكر العزاوي أنّ «التلفظ بأقوال من نمط "أ لكن ب" يستلزم اثنين:

أ- أنّ المتكلم يقدم "أ" و"ب" باعتبارهما حجتين، الحجة الأولى موجهة نحن نتيجة معينة "ن" والحجة الثانية موجهة نحو النتيجة المضادة لها، أي "لا-ن".

ب- أنّ المتكلم يقدم الحجة الثانية باعتبارها الحجة الأقوى، وباعتبارها توجه القول أو الخطاب برمته» [35]

وإذا عدنا إلى القول نجد أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم ربط بين قولين ب"لكن": «كنت لك كأبي زرع لأمّ زرع ولكني لا أطلقك» فمع ما في الأول من تصريح بحب عائشة إلاّ أن القول يمكن أن يلتبس بوهم إمكان التخلي عنها، فجاءت لكن التي يذكر النحاة العرب أنّها تفيد الاستدراك وهو «تعقيب الكلام بإزالة بعض الخواطر والأوهام التي ترد على الذهن بسببه»[36]، ليأتي القول الثاني أكثر قوة وتأكيدا، وليوجه الخطاب برمته إلى النتيجة الأقوى «ولكني لا أطلقك»، ولما كانت "لكن" من أدوات السلم الحجاجي، يمكن تمثيل ذلك كالآتي:

ن:رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب عائشة حبّا كبيرا

رسول الله لا يطلق عائشة

لكنْ

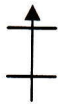

حبّ رسول الله لعائشة كحبّ أبي زرع لأمّ زرع

وهكذا كان التدرج في القول من الأضعف إلى الأقوى، فالكلام الذي قبل "لكن" يحتاج إلى التوضيح، فوجه الشبه بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي زرع ليس إلا الحب والإكرام للزوجة، وبما أنّ أبا زرع على حبه لزوجته طلقها استدرك رسول الله الكلام ليزيد من قوة إقناع المخاطب وتمّ ذلك بالكلام الذي بعد "لكن".

كانت هذه بعض آليات الحجاج في الحديث النبوي على اعتبار أنه خطاب لغوي، وما ميز هذا الحديث هو تجلي الوظيفة الحجاجية فيه على أكثر من مستوى، حيث وجدنا فيه الحجاج من خلال الحوار الذي يعتبر من أبرز تقنيات الحجاج، واستحضار النصوص من خلال قص حديث النسوة حيث لم يكن هدف عائشة من القص إلا استدراج المخاطب إلى نتيجة معينة، زيادة على حضور كم هائل من الآليات اللغوية والبلاغية كالإيجاز والإطناب والمجاز وكلها تسهم بشكل فعال في ترسيخ وظيفة النص الحجاجية، زيادة على السلم الحجاجي في ختام الحديث والذي وصل بالخطاب إلى أعلى مستوى من مستويات الإقناع.

ملحق:

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: "جلست إحدى عشر امرأة، فتعاهَدْنَ وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً.

(فقالت الأولى): زوجي لحم جَملٍ غَثّ، على رأس جبل وعر، لا سهلٌ فيرتقى، ولا سمينٌ فينتقل.

(قالت الثانية): زوجي لا أثير خبره، إني أخاف أن لا أذَرَهُ، إن أذكره أذكرْ عُجَرَه وبُجَرَه.

(قالت الثالثة): زوجي العَشَنّق، إن أنْطِقْ أُطلَّق، وإن أسكت أُعَلَّق.

(قالت الرابعة): زوجي كَلَيْلِ تهامةَ، لا حَرٌّ ولا قَرٌّ، ولا مخافة ولا سآمة.

(قالت الخامسة): زوجي إن دخل فَهِدَ، وإن خرج أسَدَ، ولا يسأل عما عَهِدَ.

(قالت السادسة): زوجي إن أكل لَفَ، وإن شَرِبَ اشْتَفَّ، وإن اضطجع التفَّ، ولا يولِجُ الكفَّ لِيَعلمَ البَثَّ.

(قالت السابعة): زوجي عَياياءُ (أو غياياءُ) طباقاء، كلُّ داءٍ له داء، شَجَّكِ أو فَلَّكِ،أو جمع كُلاً لَكِ.

(قالت الثامنة): زوجي المسُّ مسُّ أرنب، والريح ريح زَرْنَبْ.

(قالت التاسعة): زوجي رفيعُ العماد، طويل النِّجاد، عظيمُ الرِّماد، قريبُ البيت من الناد.

(قالت العاشرة): زوجي مالكٌ، وما مالِك؟ مالكٌ خير من ذلك، له إبلٌ كثيراتُ المبارك، قليلات المسارح، إذا سمعن صوت المِزْهَر أيقنَّ أنهنَّ هَوالك.

(قالت الحادية عشر): زوجي أبو زَرْع، وما أبو زَرْع؟ أناسَ من حُليٍّ أُذُنَيَّ، وملأ من شَحْمٍ عَضُديَّ، وبَجَّحَني فبَجَحْتُ إليَّ نفسي، وجدني في أهل غُنيمةٍ بَشَق، فجعلني في أهل صَهيلٍ وأَطيطٍ، ودائِسٍ ومُنَقٍّ، فعنده أقولُ فلا أُقَبَّحُ، وأرقدُ فأتصبَّحُ، وأشربُ فأتقَمَّحُ، أم أبي زرع فما أُمُّ أبي زرع؟: عُكومُها رَدَاحٌ، وبيتُها فَسَاح، ابن أبي زرع فما ابن أبي زرع؟: مضجعه كمسل شَطْبةٍ، وتُشْبِعُهُ ذِراعُ الجَفرَةِ، بنت أبي زرع: فما بنت أبي زرع؟ طَوعُ أبيها وطَوعُ أمها، وملءُ كسائها، وغَيظُ جارتها، جارية أبي زرعٍ فما جارية أبي زرع؟: لا تَبثُّ حديثنا تبثيثاً، ولا تَنْقُثُ ميرتَنا تنقيثاً، ولا تَملأ بيتنا تعشيشاً.

قالت خرج أبو زرع والأوطاب تُمْخَضُ، فَلقي امرأةً معها ولدان لها كالفهدين، يلعبان من تحت خَصْرها برمَّانتين، فطلَّقني ونكحها، فنكحْتُ بعده رجلاً سَرِيًّا، رَكِبَ شَرياً، وأخذ خَطِيًّا، وأراح عليَّ نَعَماً ثَرِياً، وأعطاني من كل رائحةٍ زوجاً، وقال: كلي أم زرع! وميري أهلك، فلو جمعتُ كل شيء أعطانيه ما بَلَغ أصغر آنية أبي زرع.

قالت عائشة -رضي الله عنها-: فقال لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: ((كنتُ لكِ كأبي زرعٍ لأم زرعٍ ولكني لا أطلقك)).

الهوامش

1- ينظر حمادي صمود، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص:60.
2- رولان بارث، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، تر: عمر أوكان،رؤية، مصر، ط:1، 2011، ص:34.
3- محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الثقافة، المغرب، ط:1، 2005، ص:15.
4- سورة البقرة: الآية: 258.
5- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج:3، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، ص،ص:.32،31
6- سورة النساء، الآية:107.
7- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج:5، ص:194.
8- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم مظاهره الأسلوبية، دار الفرابي، بيروت، ط:2، 2007، ص:11.
9- أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبيين، تح: موفق شهاب الدين، ج:1، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:2، 2003، ص:84.
10- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، دار الكتاب، ليبيا، ط:3، 2010، ص:105.
11- الجاحظ، ج:1، ص:84.
12- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص:12،http://www.al-mostafa.com.
13-سورة يس، الآية: 78،79.
14- العسكري، كتاب الصناعتين، ص:13.
* من تلك الكتب: البرهان في وجوه البيان لابن وهب، و: المنهاج في ترتيب الحجاج، أبو الوليد الباجي.
15- فريق البحث في البلاغة والحجاج، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، منوبة، تونس، ص:299.
16- صابر الحباشة، محاولات في تحليل الخطاب، طريق المعرفة، لبنان،ط:1، 2009، ص،ص:124،123
17-J.c.anscombre, et Ducrot, L argumentation dans langue, philosophie et langage, troisičme ıdition, MARDAGA. P : 08.
18- أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، الرحاب، بيروت، 2009، ص:19.
19- أبو بكر العزاوي، حوار حول الحجاج، الأحمدية، الدار البيضاء، ط:1، 2010، ص:37.
20- نفسه، الصفحة نفسها.
21- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، الكتاب الجديد، ليبيا، ط:1، 2004، ص:477.
22- أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، الأحمدية، الدار البيضاء، ط:1، 2007، ص:10.

23- عبد الغني محمد بركة، أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجا، مكتبة وهبة، القاهرة، ط:1، 1983، ص:303.
24- سامية الدريدي، دراسات في الحجاج، علم الكتب الحديث، الأردن، ط:1، 2009، ص:144.
* منهم القاضي عياض: بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، والرافعي، درة الضرع لحديث أم زرع، http://www.al-mostafa.com.
25- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تق: علي أبو زقية، موفم للنشر، الجزائر، 1991، ص: 259.
26- مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي بيروت، لبنان، ط:2، 1986، ص: 284.
27- الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص:478.
28-سامية الدريدي، الحجاج في الشعر من الجاهلية إلى القرن الثالث الهجري، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط:1، 2008، ص:123.
29- الرافعي، درة الضرع لحديث أم زرع، ص:6، www.al-mostafa.com
30- رابح بوحوش، اللسانيات وتطبيقها على الخطاب الشعري، دار العلوم، عنابة، 2006 ، ص:184.
31-الشهري. استراتيجيات الحجاج. ص: 483.
32- نفسه، ص: 273.
33- القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تح:محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا، 2004، ص:190.
34- الجاحظ، البيان والتبيين، ج:1، ص:196.
35- أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص:62.
36- عباس حسن، النحو الوافي، ج:3، دار المعارف، مصر، ط:4، ص:616.